

نبي الرحمة ﷺ

فيه عرض لمقالة الرحمة التي هي من أس الإسلام
في شخصية المصطفى صلى الله عليه وسلم من أقواله وأفعاله وأحواله

جمعه واستخلصه من كتب المصادر الحديثية

فقيه الدين عبد القادر

بيت "المبادلة" للنشر والإعلام

شيربون 2021

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. والصلاة والسلام على المصطفى معلم الناس الخير والرشد، وهادي البشرية إلى الرحمة والحق، سيدنا وإمامنا، وأسوتنا وحبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، وهذه رسالة وجيزة في عرض مقالة الرحمة في شخصيته ﷺ من أقواله وأفعاله وأحواله مستخلصة من كتب الحديث والسيرة. وقد قال تعالى في حق النبي المصطفى ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، الأنبياء: 107، وقال أيضا في حق كتابه تعالى المنزل إلى النبي ﷺ ﴿حَمِّمْنَا لَكُمُ الْمُبِينَ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ، رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، الدخان، 1-6.

وقال تعالى أيضا في حق شخصية النبي ﷺ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّفُتْنَا مِن حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾، آل عمران، 159. وقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، التوبة، 128. فالنبي المصطفى، سيدنا وحبينا محمد، هو الرحمة بذاتها، وهو الرحمة المهداة.

الرحمة المهداة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة))، أخرجه الحاكم في المستدرک¹. عَنِ الْمُسَوِّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ رضي الله عنه، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ:

¹ المستدرک على الصحيحين للحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1422هـ/2002م)، كتاب الإيمان، ج 1، ص 91، رقم الحديث: 100.

((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَنِي رَحْمَةً لِلنَّاسِ كَافَّةً، فَأَدُّوا عَنِّي بِرَحْمَتِ اللَّهِ))، أخرجه الطبراني في الكبير والسيوطي في جمع الجوامع.² وفي صحيح مسلم، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: ((إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعْتَبًا وَلَا مُتَعَتِّيًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُبَسِّرًا)).³ و(معنت) أي متشدد، و(متعنت) أي من يأتي بالمشقة للناس. فمن ادعى اتباع المصطفى ﷺ عليه أن يتصف بالرحمة في معاملته بالناس وفي دعوتهم إلى الحق دون تشدد ولا غلظة.

وعلى هذا، فإن أس الرسالة المحمدية هي الرحمة، بل الرحمة هي عين الرسالة التي بعث الله تعالى بها محمدا ﷺ للناس كافة، فلا يتصف ﷺ طول حياته بالجفاء، والشدة، وغلظة القلب، بل يتميز بالرفق، واللطف، واللين مع الناس. ومن باب الرحمة تأتي قاعدة التيسير لتكون من أهم مقومات الشريعة التي جاء بها المصطفى ﷺ. وفي صحيح البخاري، عَنْ أَنَسِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَسِّرُوا وَلَا تُتَفِّرُوا)).⁴ وفي رواية أخرى له، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَسَكِّنُوا وَلَا تُتَفِّرُوا)).⁵

وفي كتاب الأدب من صحيح البخاري، ورد باب أن من صفة النبي ﷺ يجب التخفيف واليسر على الناس ولا يجب خلاف ذلك. ولذلك، قال تعالى عن أهم معالم رسالة النبي ﷺ: ((وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ))، سورة الحج، 78. ومن أهم شخصية المصطفى ﷺ أخذ الأيسر لنفسه. ورد في صحيح البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ مَا خَيْرَ رَسُولٍ اللَّهُ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ.⁶ وعليه، يكون إفشاء السلام بين الناس من دعائم تعاليمه ﷺ، والبعد عن الفحش والتفحش من ركائز إرشاداته ﷺ، والتجنب من ظلم الناس من مقومات شريعته ﷺ.

² المعجم الكبير للطبراني، تحقيق وتخريج حمدي عبد المجيد السلفي، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، دون السنة)، ج 20، ص 8، رقم الحديث: 12. وقال المحقق أن الحديث أعلاه ضعيف ولكنه مصحح من طريق آخر.

³ صحيح مسلم، كتاب الطلاق 19، باب 4، رقم الحديث: 3763، ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 14739. (موسوعة الحديث الشريف، برنامج إلكتروني إصدار جمعية المكنز الإسلامي، إصدار 2010، القاهرة). وكل المعلومات في هذا الكتاب عن صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن الترمذي، وسنن أبي داود، وسنن ابن ماجه، وسنن النسائي، وموطأ الإمام مالك، ومسند الإمام أحمد يرجع إلى هذه الموسوعة.

⁴ صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، رقم الحديث: 69؛ صحيح مسلم، رقم الحديث: 4625؛ ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 12527.

⁵ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم يسروا ولا تعسروا، رقم الحديث: 6193.

⁶ صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث: 3600، وكتاب الأدب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم يسروا ولا تعسروا، رقم الحديث: 6193؛ وصحيح مسلم، رقم الحديث: 6190 و6193؛ وسنن أبي داود، رقم الحديث: 4787؛ وموطأ الإمام مالك، رقم الحديث: 1637؛ ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 25487، و25925، و26903.

وقد ورد باب عن إفشاء السلام في صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن أبي داود. ومما ورد في هذا الباب في صحيح البخاري، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ قَالَ: ((تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ)).⁷ وفي صحيح مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ((لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوْ لَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ)).⁸ وفي المستدرک للحاکم، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إياكم والفحش والتفحش، فإن الله لا يحب الفاحش المتفحش، وإياكم والظلم فإنه هو الظلمات يوم القيامة، وإياكم والشح فإنه دعا من قبلكم فسفكوا دماءهم، ودعا من قبلكم فقطعوا أرحامهم، ودعا من قبلكم فاستحلوا حرماتهم)).⁹ والسلام هنا لا يعني مجرد الكلام وقراءة ((السلام عليكم)) على الناس، بل هو السلام الحق المنبعث من قلب رحيم، فيكون سلاما عاما مع رحمة عامة.

الرحمة العامة

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - رَوَى النَّبِيَّ ﷺ قَالَتْ دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا السَّامُ عَلَيْكُمْ. قَالَتْ عَائِشَةُ فَفَهَمْتُهَا فَقُلْتُ وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ. قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ((مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ)). فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ((قَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ))، أخرجه البخاري.¹⁰

وفي سنن أبي داود، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَقَّلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطَى عَلَى الْعُنْفِ)).¹¹ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ ((إِنَّ اللَّهَ

⁷ صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب إفشاء السلام من الإسلام، رقم الحديث: 28؛ وصحيح مسلم، رقم الحديث: 169؛ وسنن أبي داود، رقم الحديث: 5196؛ وسنن النسائي، رقم الحديث: 5017؛ وسنن ابن ماجه، رقم الحديث: 3376.

⁸ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب من حصولها، رقم الحديث: 203؛ سنن ابن ماجه، رقم الحديث: 71؛ وسنن الترمذي، رقم الحديث: 2904.

⁹ مستدرک الحاکم، كتاب الإيمان، ج 1، ص 56-57، رقم الحديث: 28.

¹⁰ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم الحديث: 6093.

¹¹ سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في الرفق، رقم الحديث: 4809.

حِينَ خَلَقَ الْخَلْقَ كَتَبَ بِيَدِهِ عَلَى نَفْسِهِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ عَظْمِي))، أخرجه الترمذي.¹² وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ((لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ))، أخرجه البخاري.¹³

وفي صحيح مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: ((إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً)).¹⁴ وفي سنن أبي داود، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ ((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّن فِي السَّمَاءِ)).¹⁵

وفي صحيح البخاري، عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِ فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرَيْلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنَّ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَحْشَبِينَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ((بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَضْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)).¹⁶

وفي المستدرک، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة كل رحمة ملء ما بين السماء والأرض، فقسم منها رحمة بين الخلائق بها تعطف الوالدة على ولدها وبها يشرب الوحش والطير الماء وبها يتراحم الخلائق فإذا كان يوم القيامة قصرها على المتقين وزادهم تسعا وتسعين))، أخرجه الحاكم.¹⁷ وفيه، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: ((لن تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على ما تحابوا عليه؟)) قالوا: بلى يا رسول الله . قال ﷺ ((أفشوا السلام بينكم تحابوا، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا))، قالوا: يا

¹² سنن الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث: 3888؛ وسنن ابن ماجه، رقم الحديث: 4436؛ ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 9728.

¹³ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تبارك وتعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيما تدعوا فله الأسماء الحسنی)، رقم الحديث: 7465.

¹⁴ صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم الحديث: 6778.

¹⁵ سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم الحديث: 4943؛ وسنن الترمذي رقم الحديث: 2049؛ ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 6605.

¹⁶ صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، رقم الحديث: 3267.

¹⁷ مستدرک الحاكم، كتاب التوبة والإنابة، ج 4، ص 276، رقم الحديث: 7628.

رسول الله كلنا رحيم . قال ﷺ: ((إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةٍ أَحَدِكُمْ وَلَكِنْ رَحْمَةُ الْعَامَةِ رَحْمَةُ الْعَامَةِ))، أخرجه الحاكم.¹⁸

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطْشُ فَوَجَدَ بَيْرًا فَزَلَّ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ التَّرَى مِنَ الْعَطْشِ فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطْشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي فَزَلَّ الْبَيْرُ فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَدِهِ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ))، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ فَقَالَ ﷺ: ((فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ)).¹⁹ فرحمة الإسلام هي رحمة عامة شاملة، لجميع الناس، والخلق أجمعين.

وعليه، فالرحمة هي قاعدة إلهية، حيث كتبها الله تعالى على نفسه قبل أن يأمر بها على جميع عباده. وقد اتخذ المصطفى ﷺ الرحمة وجعلها رأس صفاته وأساس شئائه. وعليه، فلا ينبغي للمسلمين والناس أجمعين إلا أن يتراحموا فيما بينهم، رحمة عامة شاملة، من أجل أن نزلت بسببه رحمة الله تعالى الواسعة. فالأصل في التعامل بين الناس هو الرحمة فيما بينهم، وحتى للحيوان، والخلق أجمعين. وحيث أنه تبنى الشرائع الإلهية على الرحمة، ويؤسس عليها التعاليم النبوية، فينبغي أن يرجع إليها كل قوانين الأرض من حيث هي أصل قوانين السماء.

الرحمة هي القاعدة في المعاملة العامة بالناس

ورد في صحيح مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَعَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)).²⁰ فمساعدة العباد وتيسير أمرهم طريق إلى نزول معونة من الله تعالى، حيث أن الحياة التي تقوم على التساند والمساعدة فيما بينهم يسهل لهم في مواكبة جميع أمورهم والاصطبار على مصائبهم وشدائدهم.

¹⁸ مستدرک الحاكم، کتاب البر والصلوة، ج4، ص 185، رقم الحديث: 7310.

¹⁹ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الرحمة بالناس والبهائم، رقم الحديث: 6077؛ ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 8996، و 10850.

²⁰ صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم الحديث: 7028؛ وسنن أبي داود، رقم الحديث: 4948؛ وسنن ابن ماجه، رقم الحديث: 2510؛ ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 7545.

ومن صور المعاملة بالرحمة الإكرام والتوقير والاحترام بكل فرد من الناس، صغيراً أو كبيراً، قريباً أو بعيداً، رجلاً أو امرأة، مسلماً أو غير مسلم. وإذا رزق الله تعالى أحداً التولية على الناس، عليه أن يراعي الرحمة بهم كأساس بناء كل سياساته بهم. وفي مسند الإمام أحمد، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه، قال رسول الله ﷺ: ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوقِّرْ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا)).²¹ وفي صحيح مسلم، قال ﷺ: ((اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشَقُّ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أُمَّتِي شَيْئًا فَفَرَّقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ)).²² وفي السنن للبيهقي، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: ((أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله وأوصيه بجماعة المسلمين أن يعظم كبيرهم ويرحم صغيرهم ويوقر عالمهم وأن لا يضربهم فيذلهم ولا يوحشهم فيكفرهم وأن لا يخصيهم فيقطع نسلهم وأن لا يغلق بابهم دونهم فيأكل قلوبهم ضعيفهم)).²³

وفيما سبق فقد دعا المصطفى ﷺ إلى الحكام أن تكون لهم قلوب الرحمة في معاملتهم نحو شعوبهم فتكون سلوكياتهم وسياساتهم مع الناس في رفق معهم، وتيسير ما يسهل حياتهم وما يدفعهم إلى الارتقاء في أعلى مستوى من الحياة والسعادة والخير والبركة. وإذا ما تتحلّى قلب الحاكم بالرحمة فأحبه في حياته أن يحترم الكبير ويرحم الصغير، ويوقر العالم لتشجيع العلم في الأمة، ولا يلجأ إلى العنف، فالعنف يذل النفوس ويكسرهما، ولا ينبغي له أن يخصص ذوي النفوذ حيث أدى هذا غالباً إلى غلبة الأقوياء على الضعفاء، وإذا كان الأمر كذلك ابتعد الحاكم عن العدل الذي أمر به الله تعالى ورسوله ﷺ، وهو بعيد عن رحمته تعالى يوم القيامة. وفي سنن أبي داود، قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَحَلَّتْهُمْ وَقْفَرِهِمْ اِخْتَجَبَ اللَّهُ عَنْهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَحَلَّتْهُ وَقْفَرِهِ)).²⁴ والحلّة هي الحصلة، وهي أيضاً الحاجة والفقر. فكل من له ولاية على الناس، عليه أن يرفق في السياسة بهم، وعليه أن يعاملهم على أساس الرحمة بهم والمنفعة لهم، لا البغض عليهم ولا المفسدة عليهم. وأصل السياسة في الإسلام من أجل تيسير أمور الناس وليس الضيق بهم، وأصل الولاية بالرعية من أجل جلب المصالح إليهم ودفع المفاسد عنهم.

وحتى إذا كان المرء إماماً للناس في الصلاة، أرشده النبي ﷺ أن يرفق بهم، فلا يطيل الصلاة بهم مراعاة للضعفاء وأصحاب المصالح. عن حزم بن أبي بن كعب أنه أتى معاذ بن جبل وهو يصلي يقوم

²¹ مسند الإمام أحمد، رقم: 7056.

²² صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال الشقة عليهم، رقم الحديث: 4826؛ ومسند الإمام أحمد في مسنده، رقم الحديث: 25261، 26849، و26853.

²³ سنن البيهقي، (حيدر آباد: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 1354هـ)، ج 8، ص 161.

²⁴ سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب فيما يلزم من أمر الرعية والحجة عنه، رقم الحديث: 2950.

صَلَاةَ الْمَغْرِبِ فِي هَذَا الْخَبَرِ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((يَا مُعَاذُ لَا تَكُنْ فَتَانًا فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ وَالْمَسَافِرُ))، أخرجه أبو داود في سننه.²⁵ وفي عون المعبود في شرح سنن أبي داود، ورد أن الإمام النووي قال: ((أن في الحديث أمر بتخفيف الصلاة والتغزير على إطالتها)). وقال أيضا أن فيه: ((استحباب تخفيف الصلاة مراعاة لحال المأمومين وأما من قال لا يكره التطويل إذا علم رضا المأمومين فيشكل عليه أن الإمام قد لا يعلم حال من يأتي فيأتي به بعد دخوله في الصلاة كما في حديث الباب، فعلى هذا يكره التطويل مطلقا إلا إذا فرض في مصل بقوم محصورين راضين بالتطويل في مكان لا يدخله غيرهم)). وفي صحيح البخاري كان النبي ﷺ يرحم الناس في صلاته معهم حين كان يسرع الصلاة بعد أن سمع بكاء الصبي خلفه. عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه أبي قتادة عن النبي ﷺ قال: ((إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه)).²⁶

وفي صحيح مسلم، كان النبي ﷺ يرفق بمن أخطأ حيث تكلم أثناء الصلاة فما كان يشتمه بل يرشده إلى ما هو الصلاح. عن معاوية بن الحكم السلمي قال بيننا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم فقلت واثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إني فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمئوني لكتي سكتت فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني قال ﷺ: ((إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن)).²⁷

وكان النبي ﷺ لا يغضب على الأعرابي الجاهل الذي يبول في المسجد بل دعا الناس أن لا يغضبوا عليه وأمرهم أن يغسلوا موضع بوله. وفي صحيح البخاري، عن أبي هريرة أن أعرابيا بال في المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به فقال لهم رسول الله ﷺ دَعُوهُ وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذُنُوبًا مِنْ مَاءٍ أَوْ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ - فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُبَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ.²⁸ وكذا حين بال في حجره ﷺ صبي وضعت فيه امرأة فلا يغضب ﷺ عليه ولا على أمه. عن أم قيس بنت محصن أنها أتت رسول الله ﷺ بابن

²⁵ سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب في تخفيف الصلاة، رقم الحديث: 791.

²⁶ صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، رقم الحديث: 712.

²⁷ صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، رقم الحديث: 1227.

²⁸ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم يسروا ولا تعسروا، رقم الحديث: 6196؛ وسنن النسائي، رقم الحديث: 56 و332.

لَهَا لَمْ يَأْكُلِ الطَّعَامَ فَوَضَعَتْهُ فِي حِجْرِهِ فَبَالَ قَالَ فَلَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ نَصَحَ بِالْمَاءِ، أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ.²⁹

وقد سهل النبي ﷺ بعض أصحابه الذي اقترف خطيئة وما وجد ما يكفرها. عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكْتُ قَالَ: مَا لَكَ؟ قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟ قَالَ: لَا، فَقَالَ: فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مَسْكِينًا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ. قَالَ: أَيُّ السَّائِلِ؟ فَقَالَ: أَنَا، قَالَ: خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهِ. فَقَالَ الرَّجُلُ: أَعْلَى أَفْقَرٍ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا - يُرِيدُ الْحَرْتَيْنِ - أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي. فَصَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أُنْيَابُهُ ثُمَّ قَالَ: أَطْعِمُهُ أَهْلَكَ.³⁰ وهذا مظهر من مظاهر الرحمة الراضخة في قلب المصطفى ﷺ بأمته، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم.

و في سنن أبي داود، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ الْمِصْرِيِّ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ اخْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ فَأَشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ فَتَيَمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِي الصُّبْحَ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا عَمْرُو صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي مَنَعَنِي مِنَ الْإِغْتِسَالِ وَقُلْتُ إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا فَصَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا.³¹ وهذا اعتراف من المصطفى ﷺ على أن العبادة تكون على أساس الوسع والتيسير وليس على أساس الشدة والتغليظ.

وفي صحيح البخاري، عَنِ الْأَزْرَقِيِّ بْنِ قَيْسٍ قَالَ كُنَّا عَلَى شَاطِئِ نَهْرِ بِالْأَهْوَازِ قَدْ نَصَبَ عَنْهُ الْمَاءَ فَبَجَاءَ أَبُو بَرَزَةَ الْأَسْلَمِيُّ عَلَى فَرَسٍ فَصَلَّى وَحَلَّى فَرَسَهُ فَأَنْطَلَقَتِ الْفَرَسُ فَتَرَكَ صَلَاتَهُ وَتَبِعَهَا حَتَّى أَدْرَكَهَا فَأَخَذَهَا ثُمَّ جَاءَ فَفَضَى صَلَاتَهُ وَفِينَا رَجُلٌ لَهُ رَأْيٌ فَأَقْبَلَ يَقُولُ انظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ تَرَكَ صَلَاتَهُ مِنْ أَجْلِ فَرَسٍ فَأَقْبَلَ فَقَالَ مَا عَنَّفَنِي أَحَدٌ مُنْذُ فَارَقْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ إِنَّ مَنَزِلِي مُتْرَاحٌ فَلَوْ صَلَّيْتُ وَتَرَكَتُ لَمْ آتِ أَهْلِي إِلَى اللَّيْلِ وَذَكَرَ أَنَّهُ صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ فَرَأَى مِنْ تَيْسِيرِهِ.³²

²⁹ صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله، رقم الحديث: رقم الحديث: 691.

³⁰ صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر، رقم الحديث: 1970.

³¹ سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب إذا خاف الجنب البرد أيتيمه، رقم الحديث: 334؛ ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 18091.

³² صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم يسروا ولا تعسروا، رقم الحديث: 6195.

تأييد الضعفاء من الناس ومساعدتهم هو عين الرحمة بهم

إن ضعفاء الناس في عين المصطفى ﷺ لهم مكانة خاصة فوصى المسلمين بهم أن يرفق بهم ويرحمهم. ويكون الرفق بهم بتأييدهم وتعزيز حياتهم إلى مستوى صالح بل أصلح. ورد في سنن أبي داود، عن أبي الدرداء يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((ابْعُونِي الضُّعَفَاءَ فَإِنَّمَا تُرْزُقُونَ وَتُنصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ)).³³ وقوله (ابغوني) كما ورد في عون المعبود، بَعَيْتُكَ الشَّيْءَ طَلَبْتَهُ لَكَ. وفي سنن البيهقي، عن يحيى بن جعدة، قال النبي ﷺ: ((إن الله عز وجل لا يقدر أمة لا يؤخذ للضعيف فيهم حقه)).³⁴ وكان من صفة المصطفى ﷺ كما وصفته خديجة زوجته أمامه، ((إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر)). ومن خطبة أبي بكر الصديق لما تولى منصب الخلافة بعد وفاة المصطفى ﷺ، أنه قال: ((الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف منكم قوي عندي حتى أريح علته إن شاء الله تعالى، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله تعالى)).³⁵

ومما سبق يكون تأييد الضعفاء من أهم صور الرحمة التي أرشد إليها المصطفى ﷺ، فلا تكون الرحمة إلا بالعدل بالناس، ولا يكون العدل إلا بتأييد ضعفائهم. وعليه، تكون السياسة في الإسلام من أجل إحقاق الحق من أقوياء الناس إلى ضعفائهم، ومن أغنيائهم إلى فقرائهم. وفي حلية الأولياء لأبي نعيم، وصى المصطفى ﷺ لمعاذ بن جبل، فقال ﷺ: ((يامعاذ أوصيك وصية الأخ الشقيق، أوصيك بتقوى الله، وعد المريض وأسرع في حوائج الأرامل و الضعفاء، وجالس الفقراء والمساكين، وأنصف الناس من نفسك، وقل الحق ولا تأخذك في الله لومة لائم)).³⁶ ومن أحسن المجالسة معهم أن يعينهم ويؤيدهم لرفع مستواهم اقتصاديا، وثقافة، وسياسيا. و في صحيح البخاري، عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((السَّاعِي عَلَى الْأَزْمَلَةِ وَالْمُسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ الْقَائِمِ اللَّيْلِ الصَّائِمِ النَّهَارِ)).³⁷ والسعي هي كل من الإغاثة والمساعدة والتثقيف والتأييد والتكريم والاحترام.

³³ سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الانتصار برذل الخيل والضعفة، رقم الحديث: 2596؛ و صحيح البخاري، رقم الحديث: 2933؛ وسنن الترمذي، رقم الحديث: 1803؛ وسنن النسائي، رقم الحديث: 3192؛ ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 1511، و 22145.

³⁴ سنن البيهقي، ج 6، ص 145.

³⁵ سبل الهدى والرشاد في خير خير العباد وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ محمد بن يوسف الصالحى والشامى، تحقيق مصطفى عبد الواحد، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1418هـ/1997م)، باب الثالث والثلاثون في ذكر خير السقيفة، ج 12، ص 517.

³⁶ حلية الأولياء وطبقة الأصفياء لأبي نعيم الإصفهاني، (القاهرة: دار الفكر ومكتبة الخانجي، 1416هـ/1996م)، ج 1، ص 241.

³⁷ صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، رقم الحديث: 5407، و6073، و6075؛ وصحيح مسلم، رقم الحديث: 7659؛ وسنن الترمذي، رقم الحديث: 2096؛ وسنن النسائي، رقم الحديث: 2589؛ وسنن ابن ماجه، رقم الحديث: 2223؛ ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 8853.

وفي حق النساء، وصى النبي ﷺ بهن المسلمين بالأحسان إليهن وعدم إهانتهم، إذ كن في حالة الضعف كما هي الحال في كثير من الأحوال في البلدان الإسلامية بل العالم. ورد في سنن ابن ماجه، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْأَخْوَصِ حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّهُ شَهِدَ حِجَّةَ الْوُدَّاعِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَذَكَرَ وَوَعظَ ثُمَّ قَالَ ((اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا عَيْرَ ذَلِكَ)).³⁸ وعوان، أي كأسيرات كما ورد في لسان العرب لابن الأثير، إذ كن في حالة كثير من المجتمعات ضعفاء اجتماعيا واقتصاديا وثقافة، فهن كأسيرات مع أنهن لسن بأسيرات. (وليس تملكون منهن شيئا غير ذلك) يعني: فليس للناس إلا معاملتهن بالخير.

نشر العدل والخير ودفع الظلم والضرر

ومن أهم مقومات الرحمة أيضا نشر العدل بين الناس وعدم الظلم، والضرر، والضرار. وفي صحيح البخاري، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّتَا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبْتُهُ امْرَأَةً ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَحْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالَهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ)).³⁹ وفي سنن الترمذي، عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: ((قَالَ ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا فَوْقَ الْعَمَامِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ وَعَزَّرْتَنِي لِأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ)).⁴⁰

والإمام هنا لا يكون هو الخليفة فحسب، أو السلطان، أو الأمير، في الشؤون السياسية، بل هو كل من له ولاية على الغير في أي من أمورهم وإن كانت صغيرة، سياسة، أو اقتصادية، أو اجتماعية، أو ثقافية، وحتى عائلية. وتكون القاعدة في الولاية على الغير كما وضحت في الحديث السابق هي إقامة العدل فيما بين الأفراد فيها، ويكون العدل هي عين الرحمة بهم جميعا.

³⁸ سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج، رقم الحديث: 1924؛ وسنن الترمذي، رقم الحديث: 1196.

³⁹ صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم الحديث: 663؛ وصحيح مسلم رقم الحديث: 2427، وسنن الترمذي رقم الحديث: 2568؛ وسنن النسائي رقم الحديث: 5397؛ وموطأ الإمام مالك رقم الحديث: 1746.

⁴⁰ سنن الترمذي، كتاب صفة الجنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها، رقم الحديث: 2717؛ ومسنن الإمام أحمد رقم الحديث:

وفي صحيح مسلم، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكَلْنَا يَدَيْهِ يَمِينُ الَّذِينَ يَغْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا)).⁴¹ وفيه أيضا، عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارِ الْمَزْنِيِّ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ ((مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)).⁴² وفي مسند الإمام أحمد، عن سَعْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ سَمِعْتُهُ عِبْرَ مَرَّةٍ وَلَا مَرَّتَيْنِ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ((مَا مِنْ أَمِيرٍ عَشْرَةَ إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعْلُولاً لَا يَفْكَهُ مِنْ ذَلِكَ الْعُلِّ إِلَّا الْعُدْلُ)).⁴³

وفي صحيح مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا)). وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ((بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ)).⁴⁴ وقال الإمام النووي في شرحه للحديث: الْحَذْلُ تَرَكَ الْإِعَانَةَ وَالنَّصْرَ، وَمَعْنَاهُ إِذَا اسْتَعَانَ بِهِ فِي دَفْعِ ظَالِمٍ وَنَحْوِهِ لَزِمَهُ إِعَانَتُهُ إِذَا أَمَكَّنَهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عُدْرٌ شَرْعِيٌّ. وَأَمَّا (وَلَا يَحْقِرُهُ) أَيُّ لَا يَحْتَقِرُهُ، فَلَا يُنْكِرُ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْتَصْغِرُهُ وَيَسْتَقِلَّهُ.

وفي مسند الإمام أحمد، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ ((إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَمْرُهُمُ بِالْقَطِيعَةِ فَتَقَطَّعُوا وَبِالْبُخْلِ فَبَخِلُوا وَبِالْمُجُورِ فَفَجَّرُوا قَالَ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ قَالَ أَنْ يَسْلَمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ)).⁴⁵ وفي صحيح البخاري، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا قَالَ تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ)).⁴⁶

⁴¹ صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم الحديث: 4825؛ وسنن النسائي، رقم الحديث: 5396؛ ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 6603.

⁴² صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب استحقات الوالي العاش لرعيتيه النار، رقم الحديث: 380؛ وصحيح البخاري، رقم الحديث 7238؛ ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 20167.

⁴³ مسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 22899.

⁴⁴ صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم الحديث: 6706، و6707؛ وسنن ابن ماجه، رقم الحديث: 4068، و4353.

⁴⁵ مسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 6956.

⁴⁶ صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالما أو مظلوما، رقم الحديث: 2484.

وفي الموطأ للإمام مالك، عَنْ يَحْيَى الْمَازِنِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ)).⁴⁷ ورد في شرح سنن ابن ماجه أن الضرر والضرار كلاهما بمعنى واحد، وهو خلاف النفع، ويكون جمعها للتأكيد. وقيل الأول إلحاق مفسدة مطلقا والثاني إلحاق مفسدة على وجه المقابلة. وفي المنتقى أن الضَّرَر هُوَ مَا لَكَ فِيهِ مَنَفَعَةٌ وَعَلَى جَارِكَ فِيهِ مَضَرَّةٌ، وَالضَّرَارُ مَا لَيْسَ لَكَ فِيهِ مَنَفَعَةٌ وَعَلَى جَارِكَ فِيهِ مَضَرَّةٌ.

وفي صحيح مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ فَقَالَ: ((إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)).⁴⁸ فمن شهد بالإسلام وادعى باتباع المصطفى ﷺ عليه أن يتعد كل البعد عن الظلم بالناس، والبخس بهم، والاحتقار عليهم، والإضرار بهم. فإن كل ذلك يبعده عن إسلام المصطفى ﷺ ويجعله بعيدا عن رحمة الله تعالى في الدنيا وفضله في الآخرة.

بيت الرحمة والسعادة

إن من أساس البيت المؤمن القوي المبارك على مدى الحياة لبنة فيها مودة ورحمة وسكينة. قال الله تعالى ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))، الآية 21. وتقام على هذه اللبنة قواعد المعاشرة بالمعروف، والتشاور، والتعاون، والتراضي فيما بين أعضاء البيت. قال تعالى: ((وَعَاشِرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُمْ فَعَسَى أَنْ تَكَرَّهُوا شَيْئًا وَيجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا))، النساء، 19.

وفي سنن الترمذي، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ((إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَالْأَطْفُهُمْ بِأَهْلِيهِ)).⁴⁹ ويكون كل من الرحمة، واللطف، وحسن الخلق مطلوبًا من جميع أفراد البيت فيما بينهم من أجل تكوين بيت الرحمة والسعادة، رجلا كان أو امرأة، صغيرا كان أو كبيرا. و في صحيح البخاري، عَنِ الْأَسْوَدِ قَالَ سَأَلْتُ عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ قَالَتْ كَانَ يَكُونُ

⁴⁷ موطأ الإمام مالك، كتاب الأفضية، باب القضاء في المرفق، رقم الحديث: 1435؛ وسنن ابن ماجه، رقم الحديث: 2430، 2431؛ ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 2912، و23223.

⁴⁸ صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم الحديث: 6744؛ ومسند الإمام أحمد رقم الحديث: 8144.

⁴⁹ سنن الترمذي، كتاب الإيمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه، رقم الحديث: 2820؛ ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 24841.

فِي مَهْنَةِ أَهْلِهِ تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ.⁵⁰ وفيه أيضا، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ دَخَلْنَا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو حِينَ قَدِمَ مَعَ مُعَاوِيَةَ إِلَى الْكُوفَةِ فَذَكَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا وَقَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ مِنْ أَحْسَنِكُمْ أَحْسَنَكُمْ خُلُقًا.⁵¹ فكون المصطفى ﷺ نبيا لا يبعده أن يخدم أفراد بيته بل يتشرف ﷺ أن يعينهم ويساعدهم من أجل تكوين بيت السعادة ومقر الرحمة لهم جميعا.

وفي صحيح البخاري، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا فَقَالَ الْأَقْرَعُ إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنْ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا فَتَنَظَّرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: ((مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ)).⁵² وفي سنن أبي داود، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْبَلُنِي وَهُوَ صَائِمٌ وَأَنَا صَائِمَةٌ.⁵³ وفي سنن الدارقطني، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ لَقَدْ كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ يَقْبَلُنِي إِذَا خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَمَا يَتَوَضَّأُ.⁵⁴ والتقبيل صورة من صور إظهار الحب والرحمة وإدخال السرور إلى أفراد البيت. وهناك بالطبع صور أخرى يمكن أن يتخذها المرء طالما الغرض هو تكوين بيت السعادة ومقر الرحمة لجميع أفرادها، كالاتسام، وحسن الإقبال، وحسن الكلام، والمساعدة، والهدايا، وغير ذلك.

وفي سنن الترمذي، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشْبَهَ سَمْتًا وَدَلًّا وَهَدْيًا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قِيَامِهَا وَقُعُودِهَا مِنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ وَكَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَامَ إِلَيْهَا فَاقْبَلَهَا وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا قَامَتْ مِنْ مَجْلِسِهَا فَاقْبَلَتْهُ وَأَجْلَسَتْهُ فِي مَجْلِسِهَا.⁵⁵

⁵⁰ صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج، رقم الحديث: 680، و5417، و6108؛ وسنن الترمذي، رقم الحديث: 2677؛ ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 24863، و25588، و26349.

⁵¹ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا، رقم الحديث: 6098، و3805؛ وصحيح مسلم، رقم الحديث: 6177؛ وسنن الترمذي، رقم الحديث: 2148؛ ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 8467، و9921، و26630.

⁵² صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانفته، رقم الحديث: 6063.

⁵³ سنن أبي داود، كتاب الصوم، باب القبلة للصائم، رقم الحديث: 2386؛ وصحيح مسلم، رقم الحديث: 2630؛ وسنن الترمذي، رقم الحديث: 1412، و1814.

⁵⁴ سنن الدارقطني، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، (بيروت: دار المعرفة، 1422هـ/2001م)، كتاب الطهارة، باب ما ينقض الوضوء وما روي في الملامسة والقبلة، ج 1، ص 327.

⁵⁵ سنن الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب فضل فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث: 4246؛ وسنن أبي داود، 5219.

وفيه أيضا، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا فَسَمِعْنَا لَعَطًا وَصَوْتَ صَبِيَانٍ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا حَبَشِيَّةٌ تُزْفِرُ وَالصَّبِيَانُ حَوْلَهَا فَقَالَ يَا عَائِشَةُ تَعَالَى فَأَنْظِرِي فَجِئْتُ فَوَضَعْتُ لِحْيَ عَلَى مَنْكِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهَا مَا بَيْنَ الْمَنْكِبِ إِلَى رَأْسِهِ فَقَالَ لِي أَمَا شَبِعْتَ أَمَا شَبِعْتَ قَالَتْ فَجَعَلْتُ أَقُولُ لَا لِأَنْظُرَ مَنْزِلَتِي عِنْدَهُ إِذْ طَلَعَ عُمَرُ قَالَ فَارْقُصِ النَّاسُ عَنْهَا قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنِّي لِأَنْظُرُ إِلَى شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ قَدْ فَرَّوْا مِنْ عُمَرَ قَالَتْ فَرَجَعْتُ. 56 وفي سنن أبي داود، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ قَالَتْ فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ عَلَى رِجْلِي فَلَمَّا حَمَلْتُ اللَّحْمَ سَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي فَقَالَ هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبَقَةِ. 57

وفي المستدرک للحاکم، عن جابر، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((بروا آباءكم تبركم أبناءكم وعفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم)). 58 وفي سنن النسائي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ إِنِّي جِئْتُ أَبَايَعُكَ عَلَى الْهَجْرَةِ وَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَوَيَّ يَبْنِيَانِ قَالَ ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَصْحِكُهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا. 59 وأساس المعاملة في البيت هو الرحمة والاحترام. وفي سنن الترمذي، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله: ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا)). 60 وفي المعجم الكبير للطبراني، عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعَةٍ وَعَلَى ظَهْرِهِ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا، وَهُوَ يَقُولُ: ((نَعْمَ الْجَمَلُ جَمَلُكُمْ، وَنَعْمَ الْعِدْلَانِ أَنْتُمَا)). 61

وفي سنن أبي داود، عن بهز بن حكيم حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ جَدِّي قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نِسَاؤُنَا مَا نَأْتِي مِنهُنَّ وَمَا نَذُرُ قَالَ أَتَيْتِ حَرْثُكَ أَنْتِي شِدَّتْ وَأَطْعَمَهَا إِذَا طَعِمَتْ وَآكُسَهَا إِذَا آكَسْتِ وَلَا تُقْبِحِ الْوَجْهَةَ وَلَا تَضْرِبِ)). 62 وفيه أيضا، عَنْ لَقِيْطِ بْنِ صَبْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كُنْتُ وَافِدَ بَنِي الْمُتَنَفِقِ - أَوْ فِي وَفْدِ بَنِي الْمُتَنَفِقِ - إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي امْرَأَةً وَإِنَّ فِي لِسَانِهَا شَيْئًا يَغْنِي الْبَدَاءَ. قَالَ ((فَطَلِّقْهَا إِذْ)). قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لَهَا صُحْبَةً وَلِي مِنْهَا وَلَدٌ. قَالَ: ((فَمُرْهَا - يَقُولُ عِظْهَا - فَإِنَّ يَكُ فِيهَا خَيْرٌ فَسْتَفْعَلُ وَلَا تَضْرِبِ طَعِينَتَكَ كَضْرِبِكَ أُمَّيَّتِكَ)). 63 وفي صحيح مسلم،

56 سنن الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم الحديث: 4055.

57 سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في السبق على الرجل، رقم الحديث: 2580؛ ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 27040.

58 للمستدرک على الصحيحين، كتاب البر والصلة، رقم الحديث: 7259.

59 سنن النسائي، كتاب البيعة، باب البيعة على الهجرة، رقم الحديث: 4180.

60 سنن الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في رحمة الصبيان، رقم الحديث: 2043.

61 المعجم الكبير للطبراني، ج 3، ص 46، باب بقية أخبار الحسن بن علي رضي الله عنهما، رقم الحديث: 2661، وقال محقق المعجم أن الحديث أعلاه ضعيف لأن فيه مسروح أبو شهاب وهو ضعيف.

62 سنن أبي داود، كتاب النكاح، باب في حق المرأة على زوجها، رقم الحديث: 2145؛ ومسند الإمام أحمد رقم الحديث: 20347.

63 سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب في الاستغفار، رقم الحديث: 142؛ ومسند الإمام أحمد رقم الحديث: 16456.

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ كُنْتُ أَضْرِبُ عَلَامًا لِي فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا اعْلَمَ أَبَا مَسْعُودٍ لِلَّهِ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ حُرٌّ لَوْجَهُ اللَّهُ فَقَالَ: ((أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لِلْفَحْثِكَ النَّارُ أَوْ لَمَسَّكَ النَّارُ)).⁶⁴

وأما شخصية المصطفى في هذا الأمر، كما ورد في صحيح مسلم أيضا، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.⁶⁵ عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ اسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعَ صَوْتَ عَائِشَةَ عَالِيًا فَلَمَّا دَخَلَ تَنَاولَهَا لِيَلْطِمَهَا وَقَالَ لَا أَرَاكَ تَرْفَعِينَ صَوْتِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْجُرُهُ وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُعْضَبًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ كَيْفَ رَأَيْتَنِي أَنْقَذْتُكَ مِنَ الرَّجُلِ قَالَ فَمَكَثَ أَبُو بَكْرٍ أَيَّامًا ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَهُمَا قَدْ اضْطَلَحَا فَقَالَ لَهُمَا أَدْخِلَانِي فِي سِلْمِكُمَا كَمَا أَدْخَلْتُمَانِي فِي حَرْبِكُمَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ فَعَلْنَا قَدْ فَعَلْنَا)).⁶⁶

وعليه، لا يكون الضرب في البيت من الخير أبدا، ولن يأتي بالخير، بل يأتي منه الشر، والبغض، والشعور بالذل، والإهانة. وإذا كان الغرض منه - كما اتخذها البعض - هو الضبط والتربية، يكون حسن الكلام وحسن الأسوة خير منه وأحسن بكثير. وإذا كان الفحش في الكلام منها في تعاليم المصطفى ﷺ، فالضرب أولى منه أن ينهى ولا ينبغي أن يقترفه أحد يجب القدوة الحسنة سيدنا محمد ﷺ، حيث لا يضرب ﷺ قط امرأة ولا خادما.

ومن ركائز بيت السعادة والرحمة أن يكون دعاء المرء لنفسه ولجميع أهله دعاء خير وبركة لا دعاء شر ولعنة. وفي صحيح مسلم، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَلَمَةَ وَقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ فَأَعْمَضَهُ ثُمَّ قَالَ إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ فَقَالَ لَا تَدْعُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَيَّ مَا تَقُولُونَ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأبي سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ وَاخْلُفْهُ فِي عَقْبِهِ فِي الْعَابِرِينَ وَاعْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ وَأَفْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ وَتَوَرَّ لَهُ فِيهِ.⁶⁷ وفيه أيضا، قال

⁶⁴ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب صحبة الممالك وكفارة من لطم عبده، رقم الحديث: 4398؛ وسنن أبي داود رقم الحديث: 5161؛ وسنن الترمذي رقم الحديث: 2074؛ ومسند الإمام أحمد رقم الحديث: 17362.

⁶⁵ صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب مباحثته صلى الله عليه وسلم للأثم واختياره من الباطل أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرمانه، رقم الحديث: 6195.

⁶⁶ سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب ما جاء في المزاج، رقم الحديث: 5001؛ ومسند الإمام أحمد رقم الحديث: 18685.

⁶⁷ صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت له إذ حضر، رقم الحديث: 2169، و2170؛ وسنن أبي داود، رقم الحديث: 3120؛ وسنن ابن ماجه، رقم الحديث: 1521؛ ومسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 27186.

المصطفى: ((لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ)).⁶⁸

وخلاصة الكلام عن بيت الرحمة والسعادة يكمن في قول المصطفى ﷺ كما ورد في سنن الترمذي: عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ)).⁶⁹ وفي رواية الإمام أحمد، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا ((إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجَوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ)).⁷⁰

فالبیت لا تتوافر فيه الرحمة والسعادة إلا بجد المحاولة من جميع أفرادها، رجلا كان الفرد أو امرأة، ابنا أو بنتا، أخا أو أختا، أبا أو أما، زوجا أو زوجة، صاحب البيت أو خادما له. فالكل مطالب أن يوفر لهم السرور والسؤدد في البيت. والكل مطالب أن يقدم لهم الإكرام والاحترام والتساند والتعاون. كما أن الكل مطالب أن يجتنب البغض، والحقد، وفحش الكلام، والأذى، والإضرار على واحد منهم. وذلك من أجل إيجاد السكينة والمودة والرحمة في البيت حيث أرشد الله تعالى إليهما في تنزيله، فيتنعم أفراد البيت بنعيم جنة الدنيا قبل أن يتنعم بجنة الآخرة يوم الحساب.

حسن الجوار

والجيران أقرب الناس إلى الفرد بعد أقربائه في داخل البيت. ويكون الإحسان إلى الجيران من أهم وصيات المصطفى ﷺ على أمته. ورد في صحيح البخاري، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَّثُهُ)).⁷¹ وفيه أيضا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ صَيْفَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَبْئُتْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)).⁷² وفيه أيضا،

⁶⁸ صحيح مسلم، كتاب الزهد والرفائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، رقم الحديث: 7705.

⁶⁹ سنن الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الرفق، رقم الحديث: 2145.

⁷⁰ مسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 25896.

⁷¹ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجوار، رقم الحديث: 6083؛ وصحيح مسلم رقم الحديث: 6854؛ وسنن الترمذي رقم الحديث: 2068؛ وسنن أبي

داود رقم الحديث: 5153، وسنن ابن ماجه رقم الحديث: 3804؛ ومسند الإمام أحمد رقم الحديث: 5681.

⁷² صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم الحديث: 6087؛ وصحيح مسلم رقم الحديث: 183؛ وسنن ابن ماجه رقم

الحديث: 4106؛ ومسند الإمام أحمد رقم الحديث: 9726.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لَا تَحْفَرْنَ جَارَةَ لِحَارَتِهَا وَلَوْ فَرَسَنَ شَاةً)).⁷³ والفرسن: هي عظم قليل اللحم، وهو خف البعير كالحافر للدابة، وهو الظلف بالنسبة للشاة. وقد ورد أيضا في صحيح مسلم، عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِحَارِهِ أَوْ قَالَ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)).⁷⁴ وفي سنن الترمذي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِحَارِهِ)).⁷⁵

وفي صحيح مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقَهُ)).⁷⁶ وفي مستدرک الحاكم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ)) قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالُوا وَمَا ذَاكَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: ((الْجَارُ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقَهُ)). قَالُوا وَمَا بَوَائِقُهُ؟ قَالَ ((شُرُّهُ)).⁷⁷ وفيه أيضا، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((المؤمن من أمنه الناس، والمسلم من سلم من لسانه ويده، والمهاجر من هجر السوء، والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة عبد لا يأمن جاره بوائقه)).⁷⁸ وبوائقه يعني ظلمه وشروره ومصائبه.

وفي رواية الإمام أحمد في سننه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا رَجُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فُلَانَةَ يُذَكَّرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ: ((هِيَ فِي النَّارِ)). قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذَكَّرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنَ الْأَقْطِ وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ ((هِيَ فِي الْجَنَّةِ)).⁷⁹ وفيه أيضا، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((أَعْظَمُ الْعُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ تَجِدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي الدَّارِ فَيَقْتَطِعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا فَإِذَا اقْتَطَعَهُ طُوقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)).⁸⁰

⁷³ صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، رقم الحديث: 2605؛ وصحيح مسلم رقم الحديث: 2426؛ وموطأ الإمام مالك رقم الحديث: 1847، ومسند الإمام أحمد رقم الحديث: 10725.

⁷⁴ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، رقم الحديث: 180؛ وصحيح البخاري رقم الحديث: 13؛ وسنن النسائي رقم الحديث: 5034؛ ومسند الإمام أحمد رقم الحديث: 13348.

⁷⁵ سنن الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في حق الجوار، رقم الحديث: 2070؛ ومسند الإمام أحمد رقم الحديث: 6677.

⁷⁶ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، رقم الحديث: 181.

⁷⁷ مستدرک الحاكم، كتاب الإيمان، ج 1، ص 53، رقم الحديث: 21؛ ومسند الإمام أحمد رقم الحديث: 16634.

⁷⁸ مستدرک الحاكم، كتاب الإيمان، ج 1، ص 55، رقم الحديث: 25.

⁷⁹ مسند الإمام أحمد رقم الحديث: 9806.

⁸⁰ مسند الإمام أحمد رقم الحديث: 17528.

وفي سنن ابن ماجه، عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ
 أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَبِيحًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحَبَّ لِلنَّاسِ مَا نُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا وَأَحْسِنُ جِوَارَ
 مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا وَأَقْلَّ الضَّحْكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحْكِ تُمَيِّتُ الْقَلْبَ)).⁸¹ ويكون أقل المعروف
 والفعل الحسن وجه الطلق والابتسام. ورد في سنن الترمذي، عَنِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ: ((كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَإِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ وَأَنْ تُفْرِعَ مِنْ ذَلِكَ فِي
 إِنَاءٍ أَخِيكَ)).⁸² وإذا التقى المرء أخاه أو جاره أو صاحبه وابتسم إليه فلا يحقرن به. وفي صحيح مسلم،
 عَنِ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: ((لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ)).⁸³
 وفي مستدرک الحاكم، عن المقدم عن أبيه عن هانئ: أنه لما وفد على رسول الله ﷺ قال: يا رسول
 الله أي شيء يوجب الجنة؟ قال: ((عليك بحسن الكلام و بذل الطعام)).⁸⁴

ويكون الإقبال الحسن بالضيف، والصاحب، والجار، والقريب من أهم تعاليم الإسلام. وفي
 مستدرک الحاكم، عن عائشة، قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي، فقال لها رسول الله
 ﷺ: من أنت؟ قالت: أنا جثامة المزنية، فقال: بل أنت حسانة المزنية، كيف أتم؟ كيف حالكم؟ كيف
 كنتم بعدنا؟ قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله، تقبل على
 هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: ((إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان)).⁸⁵
 وعليه، تكون قاعدة المعاملة بالناس، جيرانا أو أصحابا، هي قوله تعالى: ((مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ
 لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا. وَإِذَا حُيِّتُمْ
 بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا))، النساء، 85-86.

ومبدأ المعاملة بالناس في الإسلام هو أن يجب المرء لأخيه في الدين والإنسانية ما يجب لنفسه.
 وفي صحيح البخاري، عَنِ أَنَسِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ
 لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)).⁸⁶ وفي صحيح مسلم: ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ أَوْ قَالَ لِجَارِهِ مَا
 يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)).⁸⁷ وفي مسند الإمام أحمد: ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَحَتَّى

⁸¹ سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، رقم الحديث: 4357.

⁸² سنن الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في طلاقة الوجه وحسن البشر، رقم الحديث: 2098؛ ومسند الإمام أحمد رقم
 الحديث: 14936.

⁸³ صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب استحباب طلاقة الوجه عني اللقاء، رقم الحديث: 6857.

⁸⁴ مستدرک الحاكم، كتاب الإيمان، ج 1، ص 74، رقم الحديث: 61.

⁸⁵ مستدرک الحاكم، كتاب الإيمان، رقم الحديث: 40.

⁸⁶ صحيح البخاري، كتاب الإيمان، رقم الحديث: 13.

⁸⁷ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، رقم الحديث: 179.

يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُجِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ)).⁸⁸ وفي رواية أخرى: ((لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ)).⁸⁹ وفي رواية أخرى عن عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَفْضَلِ الْإِيمَانِ قَالَ: ((أَنْ تُحِبَّ لِلَّهِ وَتُبْغِضَ لِلَّهِ وَتَعْمَلَ لِسَانَكَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ))، قَالَ وَمَاذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ((وَأَنْ تُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَتَكْرَهُ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ)).⁹⁰ وفي رواية أخرى عن عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَعْقِيلِ الْيَشْكِرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَجُلٍ، قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَبْرِي بَعَمَلٍ يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: ((تُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَحُجُّ الْبَيْتَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتُحِبُّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْكَ وَتَكْرَهُ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْكَ)).⁹¹

وفي صحيح مسلم، عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)).⁹²

الرحمة بالحيوان والحفاظ على البيئة

إن المعاملة بسائر الخلق، وحتى بالحيوان والبيئة، يكون أساسها هو مراعاة الرحمة بها ولا يكون اتخاذ المنفعة منها للناس إلا على قدر الحاجة ولا ينبغي أن يصل فيه إلى التفریط ولا الإفراط. ورد في مسند الإمام أحمد، عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ وَهُمْ وَفُوفٌ عَلَى دَوَابِّ لَهُمْ وَرَوَاحِلَ فَقَالَ لَهُمْ: ((ارْكَبُوهَا سَالِمَةً وَدَعُوهَا سَالِمَةً وَلَا تَتَّخِذُوهَا كِرَاسِيَّ لِأَحَادِيثِكُمْ فِي الطَّرِيقِ وَالْأَسْوَاقِ قَرَبٌ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهَا وَأَكْثَرُ ذِكْرًا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ)).⁹³

وفي صحيح مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخُصْبِ فَأَعْطُوا الْإِبِلَ حَطَلَهَا مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ فَاسْرِعُوا عَلَيْهَا السَّيْرَ وَإِذَا عَرَسْتُمْ بِاللَّيْلِ فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ فَإِنَّهَا مَأْوَى الْهُوَامِ بِاللَّيْلِ)).⁹⁴ و((التعريس) فهو نزول المسافر في آخر الليل للنوم

⁸⁸ مسند أحمد، رقم الحديث: 14083.

⁸⁹ مسند أحمد، رقم الحديث: 14298.

⁹⁰ مسند أحمد، رقم الحديث: 22558.

⁹¹ مسند أحمد، رقم الحديث: 16130.

⁹² صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، رقم الحديث: 6751.

⁹³ مسند الإمام أحمد، رقم الحديث: 15869.

⁹⁴ صحيح مسلم، كتاب الإمامة، باب مراعاة مصلحة الدواب في السير والنهي عن التعريس في الطريق، رقم الحديث: 5068.

والاستراحة. وفي سنن أبي داود، عن سهل ابن الحنظلية قال مرَّ رسول الله ﷺ ببعيرٍ قد لحق ظهره ببطنه فقال ((اتقوا الله في هذه البهائم المُعجَمة فإنَّ كِبُوهَا صَالِحَةٌ وَكُلُوهَا صَالِحَةٌ)).⁹⁵

وفي موطأ الإمام مالك، عن أبي عبيد مولى سليمان بن عبد الملك عن خالد بن معدان يرفعه إنَّ الله تبارك وتعالى رقيقٌ يحبُّ الرِّفقَ ويَرْضَى بِهِ وَيُعِينُ عَلَيْهِ مَا لَا يُعِينُ عَلَى الْعُنْفِ فَإِذَا رَكِبْتُمْ هَذِهِ الدَّوَابَّ الْعُجْمَ فَأَنْزِلُوهَا مَنَازِلَهَا فَإِنْ كَانَتِ الْأَرْضُ جَدْبَةً فَانْجُوا عَلَيْهَا بِنَفْسِهَا وَعَلَيْكُمْ بِسِيرِ اللَّيْلِ فَإِنَّ الْأَرْضَ تُطْوَى بِاللَّيْلِ مَا لَا تُطْوَى بِالنَّهَارِ وَإِيَّاكُمْ وَالتَّغْرِيسَ عَلَى الطَّرِيقِ فَإِنَّهَا طَرُقُ الدَّوَابِّ وَمَاوَى الْحَيَاتِ)).⁹⁶ وفي المنتقى لشرح الموطأ، ((فأنزلوها منازلها))، أي اجزوها على ما فيه صلاحها من غير عنفٍ عليها. وأما ((فانجوا عليها بنفسيها)) أي أسرعوا السير، وقيل: اسلموا عليها ما دامت بنفسيها، وهو شحمها وقوتها. وقال صاحب المنتقى: ((فيكون معناه - والله أعلم - انجوا عليها من أرض الجدب فإنكم إن أبطأتم بها في أرض الجدب ضعفت وهزلت فلم تنجوا عن أرض الجدب فجعل ذلك معنى يبيح الإسراع ويجري ذلك مجرى المخافة وإنما شرع الرفق مع الخصب والأمان وعدم الأسباب الموجبة للتعجيل والإسراع ، والله أعلم وأحكم)).

وفي صحيح البخاري، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((عَدَبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسْتَهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارُ قَالَ فَقَالَ وَاللَّهِ أَعْلَمُ لَا أَنْتِ أَطْعَمْتَهَا وَلَا سَقَيْتَهَا حِينَ حَبَسْتَهَا وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتَهَا فَأَكَلَتْ مِنْ حَشَائِشِ الْأَرْضِ)).⁹⁷ وفي سنن النسائي، عن عمرو بن الشريد قال سمعتُ الشريد يقول سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: ((مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا عَجَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ يَا رَبِّ إِنَّ فُلَانًا قَتَلَنِي عَبَثًا وَلَمْ يَفْتِنَنِي لِمَنْفَعَةٍ)).⁹⁸ وفي رواية للإمام أحمد، عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ((مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا فِي غَيْرِ شَيْءٍ إِلَّا بِحَقِّهِ سَأَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)).⁹⁹

وأما في حق الحفاظ على البيئة، فقد ورد في صحيح مسلم، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ ((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى

⁹⁵ سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم، رقم الحديث: 2550.

⁹⁶ موطأ الإمام مالك، كتاب الاستئذان، باب ما يؤمر به من العمل في السفر، رقم الحديث: 1804.

⁹⁷ صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب فضل من سقى الماء، رقم الحديث: 2405؛ وصحيح مسلم رقم الحديث: 5991.

⁹⁸ سنن النسائي، كتاب الضحايا، باب من قتل عصفورا بغير حقها، رقم الحديث: 4463.

⁹⁹ مسند الإمام أحمد رقم الحديث: 7079.

عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءِ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ)).¹⁰⁰ ويمكن أن يستدل منه أن الطريق ينبغي أن ينقى من أي أذى وضرر، سواء كان للناس أو للطريق نفسه. ومنه أن من تعاليم المصطفى ﷺ الحفاظ على البيئة ومراعاتها من أجل سلامتها وسلامة الناس فيها. وفي صحيح البخاري، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَيْهَمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ)).¹⁰¹ وعليه يكون الغرس والزرع من أجل صلاح البيئة وما حولها، إنسانا أو حيوانا، أو غير ذلك. وغرس الأرض وإحيائها يكون هو الأصل في إرشادات المصطفى ﷺ.

ورد في سنن أبي داود، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ((مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ وَلَيْسَ لِعِزْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ)).¹⁰² وفي مسند الإمام أحمد، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا)).¹⁰³ وهذا يدل على عظمة مكانة الغرس، الذي هو الحفاظ على البيئة، في عين المصطفى ﷺ. ويكون أصل المعاملة أيضا عدم الظلم وحتى بالأرض كما ورد في صحيح البخاري، عن سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ ظَلَمَ مِنَ الْأَرْضِ شَيْئًا طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ)).¹⁰⁴ والظلم هنا لا يعني ظلم الناس صاحب الأرض فحسب، ولكن ظلم الأرض أيضا، بإضاعتها وإفسادها واتخاذها ما يضرها ويضر البيئة وما حولها، إنسانا أو حيوانا. ذلك لأن أصل المعاملة كما سبق هو الرحمة والإحسان، وليس الظلم والإضرار. فكل صورة من الرحمة والإحسان بالخلق، إنسانا، أو حيوانا، أو بيئة، هو مرغوب ومأمور في تعاليم المصطفى ﷺ، وما عكس ذلك منهي عنه وغير مرغوب فيه.

نختتم هذه الرسالة بدعاء القرآن الكريم ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾، آل عمران، 8، ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، الكهف، 10. ونرجو الله تعالى أن يجعلنا ممن يدخلهم في رحمته، كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾، هذه الآية،

¹⁰⁰ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم الحديث: 162؛ صحيح البخاري رقم الحديث: 9؛ وسنن أبي داود رقم الحديث: 4678؛ وسنن الترمذي رقم الحديث: 2822؛ وسنن النسائي رقم الحديث: 2822؛ وسنن ابن ماجه رقم الحديث: 59؛ ومسند الإمام أحمد رقم الحديث: 9485.

¹⁰¹ صحيح البخاري، كتاب المزرعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، رقم الحديث: 2361؛ وصحيح مسلم رقم الحديث: 4055؛ وسنن الترمذي رقم الحديث: 1441، ومسند الإمام أحمد رقم الحديث: 12690.

¹⁰² سنن أبي داود، كتاب الحراج والإمارة والفيء، باب في إحياء الموات، رقم الحديث: 3075.

¹⁰³ مسند الإمام أحمد رقم الحديث: 13100.

¹⁰⁴ صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب إثم من ظلم من الأرض شيئا، رقم الحديث: 2492؛ ومسند الإمام أحمد رقم الحديث: 1650.

النساء، 175، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، آل عمران، 107.

ونسأل الله تعالى أن ينفعنا بهذا الكتاب، ويغرس بسببه في قلوبنا والمسلمين عامة، الرأفة، واللطف، والرحمة فيما بيننا وبين الناس وجميع الخلق أجمعين، ما يهدينا ويسهلنا إلى حياة الخير والبركة والسعادة، في هذه الدنيا قبل أن تكون لنا في حياة الآخرة، آمين يا رب العالمين.

الفقير إلى الله والمعتر به
فقيه الدين عبد القاد الشيربوني

المحتويات

3	الرحمة المهداة
5	الرحمة العامة
7	الرحمة هي القاعدة في المعاملة العامة بالناس
11	تأييد الضعفاء من الناس ومساعدتهم هو عين الرحمة بهم
12	نشر العدل والخير ودفع الظلم والضرر
14	بيت الرحمة والسعادة
18	حسن الجوار
21	الرفقة بالحيوان والحفاظ على البيئة

يطلب جميع منشوراتنا من :
بيت "المبادلة" للنشر والإعلام
HP (WA): 081231995922